

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
إِيَّاهُ وَحْدَهُ نَسْتَعِينُ

## المَقْدِمَةُ

الحمدُ لله ربَّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّه الأمين، المبعوثِ  
رحمةً للعالمين، أسألك اللهم أن تجعلني من الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهُم بذكر  
الله، وأسألك أن تجعلني من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحقِّ  
وتواصوا بالصبر، فلا أكون من الخاسرين، ربَّ لا تجعلني من الذين ينقضون  
عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، ويقطعون ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَلَ، ويُفسدون في  
الأرض، أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي مُخْلِصاً لِهَ دِينِي، أَمَرْتُ لِأَسْلَمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ،  
وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ،  
لَا عِلْمَ لِي إِلَّا مَا عَلَّمَنِي، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، رَبِّ وَفَّقْنِي لِأَفْقَةِ  
بِقَلْبِي، وَاسْمِعْ بِأَذْنِي، وَأَبْصِرْ بِعَيْنِي، فَلَا أَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ، رَبِّ وَلَا تَجْعَلْنِي  
مِنَ الَّذِينَ يَسْتَحْبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ،  
وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً، هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ.

وبعد، فخلالَ قِيامي بالتدريس في جامعتنا الفلسطينية - جامعة النجاح  
الوطنية - سَمِعْتُ الشَّبَابَ الْمُسْلِمَ فِي الْجَامِعَةِ يُنْشِدُ شِعْراً اسلامياً ثائراً مؤثراً،  
وكان ممَّا سمعتُ :

نحنُ أجيالُ الغدِ	وجنودُ السُّودِ
قد نهلنا علمنا	من كَرِيمِ المورِدِ
من سنا قرآننا	والهدى المحمَّدي

فلَمَّا فرغوا سألت: شعرٌ من هذا؟ قالوا: شعرُ أبي جهاد!!، لم أكن يومها على علمٍ بِشعرِ أبي جهاد، ومَضَّتْ شُهُورٌ، وطِيفُ أبي جهاد يجول في خاطري بإعجاب، وَحَدَّثَ أَنَّ زارَ جامعتنا وفدُ الشبابِ المسلم من الجامعة الإسلامية في غزة هاشم، وأقيم في رحاب الجامعة لقاءً بمناسبة مولد سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام، فشارك شبابُ غزة المحتفلين بنشيدٍ أعدوه قالوا فيه:

زَلْزِلُوا يَا أَبَاةَ مَا أَقَامَ الطَّغَاةَ  
 وَاسْجُدِي يَا جِبَاهَ فِي رَحَابِ الْإِلَهَ  
 حَيْثُ حَقَّ السُّجُودَ  
 كُنَّا نَفْتَدِي دَعْوَةَ السُّؤْدِ  
 كَيْ نَرَى فِي غَدِّ رَايَةَ الْمَسْجِدِ  
 فَوْقَ كُلِّ الْبُنُودِ

فدخل نشيدهم أذني من غير إذن، وحرَّكَ أوتارَ قلبي بصورةٍ عجيبة، وبدت علاماتُ التأثر والانفعال في ملامحي، كنتُ أجلس في الصف الأول، ورأيتني أتلفتُ يمنةً ويسرةً، عليَّ أجدُ من يشاركني انفعالي، وتأثري، ولمَّا فرغوا من إنشادهم تساءلت: شعرٌ من هذا يا أخوة الدين؟ قالوا: شعرُ أبي جهاد، قلتُ في نفسي: أبو جهاد!!!، لأعكفنُ على قراءة شعره كله، فشعرُ هذا شأنه جديرٌ مني بدراسة.

وحدث أن زُرتُ أردننا المعطاء خلال اجازة، وسألتُ عن شعره، فوجدت ديوانه «في رحاب الأقصى»، ودأبتُ على قراءته كلمةً كلمةً، وبعين البصيرة، ومن الجلدة إلى الجلدة، كنتُ كلِّما قرأتُ آياتاً شدتني، أتمنى لو كان أبو جهاد عندي، لأطبع على جبينه قُبلةً، ولن أنسى ساعةً هامَ خيالي فيها مع أشعاره، فعلتُ بي فِعْلُ السحر، ونسيت نفسي كلَّها، وباتَ شعره يُلوِّنُ تقاسيمَ وجهي كيفما شاء، ولربِّما حرَّكتُ يدي أو رأسي من حيث أدري ولا أدري، أما عيناى، فظهرتُ عليهما سِمَاتُ الأُسْر، وإذا بولدٍ لي صغير يرقبني ذاهلاً، فإذا به يسأل: ما بالكَ يا أبي تفعل هكذا؟ فعرفتُ ماذا رأى مني.

ومكثتُ في الزرقاء أسبوعاً، لم يَسْغُنِي خلاله عن قراءة شعره غيرُ ساعاتِ نوم، أو صلاة، أو طعام، وَعُدْتُ إلى فلسطين، أحمل معي الديوان، وكأنني أحمل رأس كليب، أو عَلَمَ نَصْرٍ، أحلُمُ به، وفي جَسْرٍ دامية - جسر العذاب - فوجئت بأحلامي تتبدد، وإذا بأبناء يهود - قاتلهم الله - يصادرونه، وسألتُ عنه، ورأيتُ الضابط اليهوديَّ يقَلِّبُ صفحاته هازئاً رأسه، فالديوان «في رحاب الأقصى!»، وكلُّ صفحةٍ من صفحاته التي تقارب الثلاثمائة تزيّنها صورة «رشاش كبير»!!، فالديوان دعوة صريحة واضحة للقتال، وشكلاً ومضموناً، ورأيتُ لسانَ حال الضابط يقول: هذا الذي نخشى، ونحسب له الحساب، وانتابني حزن وحسرة وألم، ورآني رفيقُ سفر العذاب الذليل فقال: أمجنون أنت؟ قلت: كيف ترى؟ قال: أو مثلُ هذه الكُتُبِ يسمعون بإدخالها!! قلت: لعلَّ وعسى .

وعُدْتُ إلى جامعتي «مجرّداً» من الديوان، ويشاء الله ألا يطول بي المقام في الوطن بعد عودة الحرمان تلك، وكان لي شرف الإبعاد عن الجامعة وعن الوطن، كان لي شرفٌ أن أتتْ مذمتي من أعداء الله، وأقمتُ في الزرقاء سنة، وإذا برَبِّي سبحانه يلهمني أن أذكر اسم شاعرنا الفذ، على مسمعٍ من أخٍ لي في الله، هو المسلم الطيب أبو الطيب محمد سعيد استيتية، الذي كان قد أبعد عن الجامعة قبلي، وإذا به يفاجئني: أتحبُّ زيارته؟ قلت: ألف نعمٍ ونعم، ويكون اللقاء الأول بيني وبين الشاعر العملاق، وأشفي الغليل بقبلة كنت يوماً قد تمنيتها، وماذا أقول وأقول، فلقد كادت لغة الكلام تتعطل، كما قال شوقي، اكتفاءً بأحاديث القلوب، التي كشفتْ خافيها العيون، فأوقاته جدُّ ثمينة، وما من دقيقة تمرُّ، إلا ويدقُّ فيها جرس الهاتف، أو يُدقُّ الباب، أنشدَ علينا شيئاً من شعره، وأهدى لكلِّ واحدٍ منا نسخة من ديوانه، وشربنا الشاي ساخناً وعلى عجل، وقام وودّعنا كما استقبلنا بتكريم.

ورجعتُ من عمّان إلى بيتي في الزرقاء، قبيل العصر، وجدتُ أسرّتي تنتظر كعادتها مؤخّرة طعام الغداء، قلت: لا أريد زاداً، وجلستُ على مكتبي ممسكاً قلمي، وأخذتُ أقرأ شعره بشغف، فلقد آليتُ على نفسي أن

أنقده، واثقاً مطمئناً أن شاعرنا احتضنه إسلامه فهذبته، فهو يتقبل نقدي برحابة صدر، وسعة أفق، فلا يقابلني كما يقابلني غيره من شعراء «التحرر!!» و«الفرنجة!!»، الذين ما أن أحسوا أن لي نقداً لشعرهم، حتى ثاروا وثاروا، وكادوا ومكروا، وغمزوا، ولمزوا عليّ لدى من ظنوا أن أرازمي بأيديهم، فحصلتُ جزاء سنّمار، جهلاً منهم بالنقد، ومهمّة الناقد.

وقرأت الشعر وقرأت، ورأيت أن دراستي النقدية لشعره غير ما اعتدت، كنت إذا أردت نقد شعر وجدتُ السبيل مهيباً، ومجال الانتقاد كبيراً، وحينما أنظر أجد مأخذ وهنات، ولكنني حين أردت دراسة شعر صاحبنا، وجدتني كلما قرأت بيتاً أنار لي سبيلاً كان يتغشاها ضباب، وفتح نوافذ كانت من قبل موصدة، ووجدتني أستفيد أكثر مما أفيد، وأخذ أكثر ممّا أعطي، وانتابنتي حيرة حتى بأيّ الأسماء أسميه، وساءلت نفسي: أأسميه الشاعر الذي أعاد للشعر الإسلامي حرارته وقوته؟ أأسميه الشاعر الذي صدع شعراء الرذيلة، وشعراء الجاهلية الجهلاء، جاهلية القرن العشرين، الذين ما فتئوا يسيرون على خطا أبي نواس وبشار وابن أبي ربيعة، متجاهلين إيماناً زعموه، وشرفاً ادّعوه، وقلت في نفسي: أأسميه رافع راية الإسلام؟ فلقد وجدته يقول:

وراية الشعر للإسلام أرفعها      كالشمس يشرق مجلواً بأوزان

أأسميه حسّان زماننا؟ فهو القائل:

يعيش حسّان في قلبي وفي قلبي      فهل بلغت بشعري روح حسّان

أأسميه شاعر القدس؟ القدس التي غطى حبه لها على حب كل ما عداها  
من بلدان الأرض، فهو القائل:

يا قدس يا محراب يا منبر      يا نور يا إيمان يا عنبر

وهو القائل:

القدس في أفق العلى كوكب      تشعّ بالنور فلا تعجبوا

وهو القائل :

القدسُ أمْ طَهَّرُهَا غامرٌ وحضُنُهَا بعضُ رياضِ الجنانِ

أم أَسْمِيهِ شاعرُ الأَقْصَى؟ فديوانُهُ «في رحابِ الأَقْصَى»، وهو القائل :

وجراحُ الأَقْصَى تمزَّقُ صدري وعدوُ الإسلامِ يحتلُّ داري

أَسْمِيهِ شاعرَ الجهادِ والاستشهادِ؟ فما من قصيدة له إلا وتحسُّ منها حرارة جهاد، وما من صفحة إلا وزينتها بسلاح، حتى غدا ديوانه مقاتلاً لا مقروءاً! .

هو شاعر آمن، لم يتبعه غاوي، ولم يهيم في واد، ولم يقل ما لا يفعل، أو لأقل: فعل ما لم يقل، وشعره شاهد بذلك، ما من بيت له قرأت فلمست أنه من الإيمان في حل، فقد وجدته وضع جنات ربّه هدفاً يسمي لينا له:

وهل أظُلُّ على عهدي أوثقُه

لا أبتغي غيرَ جناتِ ورضوان؟

قلتُ في نفسي: أَسْمِيهِ أمير شعراء الإسلام في القرن العشرين؟ فيقابل أمير شعراء العروبة شوقي، أَسْمِيهِ عميد أدب الإسلام؟ فيوازي الذي نصّبوه عميداً لأدبنا العربي، بعدما عمل ما عمل، ونشر ما نشر، وقال ما قال، وأمره اليوم إلى ربّه. أَسْمِيهِ الشاعر ذا العين المغرورقة، والأجفان المخضلة بدمعها من خشية الله، أملاً ألا تمسّ عينه نار، في يوم هلع لا محالة آت، وهو القائل:

أناجيك في ليلي وفي العين أدمعُ

وما لي إلا رحمة منك تشفع

أَسْمِيهِ شاعر العزّة؟، العزّة التي خصّ الله تعالى بها نفسه ورسوله والمؤمنين، فلقد وجدته يقول:

وأخشع في ذلّي إليك فأنثني

وفي النفس إحساسٌ من العزّ أرفع

ويقول:

ما كان للهامات أن تنحني  
لو كان فينا عزة المسلم

وأخيراً، بعد كراً في فكري وفرّ، وضرب وطرح، وعطاء وأخذ، رأيت أن تسميته «شاعر القدس» أكثر شمولاً، فوق أنها أجدى، وأكثر صواباً.

وأيقنت أن أدينا مؤدب، أو لأقل: أديب أديب، أدبه قرآن وربته سنة، فأحسن وأحسن، أحسن التأديب، وأحسن التأدب، و«في رحاب الأقصى» يتحدى من به عمى أو عمه، وسيتبين - وبعيون القلب - أن سليل آل العظم حاسب حساباً ليوم تكشف فيه أغطية، وتنتشر صحف. لقد قرأت ديوانه بعين بصري وعين بصيرتي، أيقنت بعدها - ولا أزكي على الله أحداً - أنه ممن يشملهم الاستثناء الرباني في آية الشعراء، وأيقنت كذلك أن انتماءه لإسلامه فاق انتماءه لقبيلة أو إقليم، وأيقنت أنه مهتم بأمر مسلمين شردوا وأهينوا، وأنه فلسطيني أكثر من فلسطينيين، وما فعله لها فاق ما فعله شعراء كثيرون، ولدوا فيها، وحسبوا أنهم لها وهم عليها، هو ابن معان - المدينة الأردنية الأبية -، ولكنه قبلها ابن الإسلام الذي يربي الأبناء على رباط العقيدة المتين، الرباط الذي تهزل أمامه رباطات الدم والعرق واللغة والإقليم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه  
إذا افتخروا بقيس أو تميم  
وما كرم ولو شرفت جدود  
ولكنّ التقي هو الكريم<sup>(١)</sup>

هو ابن القدس وإن ولد في معان أو عاش في عمان، هو ابن العقيدة التي ما عرفت الحدود، وابن الإيمان الذي حطم السدود، وأزال القيود، وجاوز سفر قلبه باقٍ لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ورغم حُبِّ الماكزين، وحقد تجار القطيعة.

(١) البيان للشاعر نهار بن توسعة.

لقد وجدتُ الدراسة التي نُشرتْ حول شعره، والتي وردت ضمن «شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث»، التي قام بها أَخَوَانِ عزيزان هما أحمد عبد اللطيف الجدع، وحسني أدهم جرار، لا تفي بالحاجة، وما كَتَبَا عنه، أو عن غيره، من شعراء الدعوة ليس بكافٍ لتعريف القارئ على شاعرية أحدهم، أو اتجاهاته وانطلاقاته الشعرية، والدراسة تلك، لا تعدو أن تكون معجماً لشعراء الدعوة، تكفي للتعريف بالأسماء مع شيء من شعرهم، كم تألَّمْتُ إذ وجدتُ المؤلفين الكريمين اكتفياً بسرد موجز لحياة الشاعر، ثم أتيا بقصيدة واحدة كاملة للشاعر أو اثنتين، هكذا!!، ودونما تعليق أو دراسة، وجدتهما يدرسان ستة شعراء، وربما ثمانية في كَتِيبٍ صغير لا تتجاوز صفحاته المائة، ولكن الدراسة عرَّفَتِ القارئ العربي بشعراء جديرين أن يُعرَفُوا، أمثال الدكتور يوسف القرضاوي، وكمال رشيد، ومحمود غنيم، وعبد الرحمن بارود، وعصام العطار، ومحمود حسن اسماعيل، وسعيد تيم، ومبارك الخاطر، ومحمد صيام وغيرهم، عرَّفَتِ بالأسماء لا بالشاعرية، ومع ذلك كلّه، كفى المؤلفين فضلاً هذا التعريف، وكفاهما حُسْنُ النية، وطيبُ السريرة، وسلامة المقصد، والاهتمام بما يهمُّ القارئ المسلم، وليس هذا أبداً أبداً بالشيء اليسير.

دراستي لشعر أخي يوسف العظم هذه مقصورة على شعره «في رحاب الأقصى»، فلا هي شاملة شعر ما قبله ولا شعر ما بعده، وهي لا تشمل كذلك شيئاً ممَّا نشره نثراً من دراسات وأبحاث وقصص، وآثاره الثرية هذه جديرة بدراسة مستقلة، أسأل رَبِّي تباركَتْ أسماؤه عَفْواً وعافية تمكَّنتي أن أقوم بها في قابل الأيام.

أنشر هذه الدراسة، في وقتٍ أرى فيه أُمَّتَنَا أشدَّ ما تكون حاجةً إلى أن ننشر في أوساطها شعراً إسلامياً، وقصصاً إسلامية، ونقداً إسلامياً، ومقالات إسلامية، وخواطر إسلامية، وحتى تمثيلاً إسلامياً، ينبه الغافلين من شبابنا وشاباتنا أنهم مسلمون، بعد ما قضوا رُبْعَ أعمارهم محملقين، يتلمذون على

جهاز الدمار التلفاز، الذي اغتال فينا الحياء، فقتل الفضيلة، وأبعد وألهم عن الدين، رأيناهم ما أن تحين ساعة الأصيل، حتى تتحلّق أسرنا «المسلمة!!»، حول هذا المفسد «تعلّم!» من دروسه التطبيقية العملية حتى يتتصف الليل، وربما حتى يتأهب القاتنون لصلاة فجر، وتقتبس أسرنا كل شين، وتهجر كل زين، وكأنها خُشب مسنّدة، مخدّرة، مُغفلة أسرنا والله، تظنّ نفسها سعيدة، وما درت أنها باللهو الماجن هذا غارقة، وليوتها مدمّرة، وعن ذلك كله أمام الله مسؤولة.

وانتشر فساد، وتسربّ إلحاد، واستهتارٌ بعبادات، حتى قرّنا وبوادينا، كانت بالأمس القريب محافظة، فصرنا نرى فتياتنا فيها تتابع مسلسلات الخنوع، وتقتني أشرطة الدمار وتلبس ما صمّمه بارييون، وتحسر الرأس، ولا حول ولا قوة إلا بك يا عظيم.

وغاب مصلحون، وسكت مرثون، وقال «لا يعنيني!» رعاة ومعلّمون، وجبن أو فسد ناقدون، قادوا سفينة أدبنا إلى خضم هلاك، ولكن «عربنا!» أجلسوه على كرسي الزعامة الأدبية الفنية! كم يؤلم أن وجدتُ بعضهم تربّع على جهاز إعلامنا!! كم يُقلق أن رأيت منهم من بيده تصريف أمور جامعاتنا!!

وأفلق أدباء الايمان، وغاب أديب عاتٍ متكبر مشكك مفسد معاند، ربّ وفق شباب الاسلام كي يُعرضوا عن أدب الفساد ودعائه ومرّوجيه، الذين بنوا أدبهم على جرف شطّ هارٍ، فهوى بهم في حضيض الرذيلة، وانهاروا في مستنقع الخور، ربّ اهد أمهاتنا ونساءنا، وأخواتنا، وبناتنا المسلمات ليُقبلن على أدب العفاف، فإنك ياربّي تحب المطهرين.

أحمد ربّي فالحق الحبّ والنوى والأصباح أن وفقني لأنم هذه الدراسة، وأسأله سبحانه أن يجزييني الغرفة بما صبرت، فهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، ما أبرّئ نفسي، إنّ النفس لأثارة بالسوء، إلا من رحم ربّي، إنّ أجري إلا على رب العالمين، كفاني رضوانه تباركت أسماؤه، ذلك الفضل من

الله، وكفى بالله عليمًا، إن أريدُ إلاّ الاصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلاّ بالله  
العلي العظيم .

الدَّمَام ٧ من ربيع الثاني سنة ١٤٠٤ هجرية  
١٠ من يناير «كانون الثاني» سنة ١٩٨٤ ميلادية .

دكتور  
زكي الشيخ حسين عثمان كتّانه